مفهوم الجيل الأدبيّ[1] وتجلياته في سوريا

د. أدهم مسعود القاق، كاتب سوري

الحق أنّ حركة السرد العربي المعاصر تتجه نحو آفاق جديدة، والرواية العربية لها السبق في هذه الحركة، فهي تؤكّد على حضور الذات الفاعلة في خطابها وتستدعيها بفردانيتها لمواجهة طغيان الجماعة، عن طريق الموضوعات المستمدة من الواقع المعقد، والمرتدية الحكايات الشعبية الراسخة في الضمير الجمعي العربيّ الذي يرتكز على: "التسجيل الشعبي، فهو تسجيل شفاهيّ تراثي تتناقله الأجيال تلقائيًا، قد تزيد عليه وتعدل مضمونه؛ بما يخدم أهداف الجماعة الإنسانية" ، وإن كانت النصوص السردية حملت ملامح إيديولوجية في إنتاج أجيال ما قبل جيل الألفية، فإنّ جيل الألفية الأدبيّ أهمل الأيديولوجيا في إنتاجه منذ العقد الأخير من القرن العشرين، ولكنّه بقي اهتمام أبنائه بالثقافة الشعبية السائدة بصفتها إحدى المكونات الرئيسة للهوية الثقافية، ولعلّ جيل ما بعد الألفية، الذي بدأ يعطي إبان ثورة الربيع العربي، ركّز على قضايا الثورة وتجلياتها وتبعاتها المأساوية، فصور كتّابه ومبدعوه مآسي الاعتقال والتهجير والتغييب والموت اغتيالًا أو قصفًا أو ذبحًا، في المخيمات وعبر البحر، داخل البلدان التي تستعر فيها نيران الحرب وخارجها، ومن الناحية الفنية بدأ ينبش عن الأصول المكونة للواقع الراهن، وشرع في تفعيل تقنياتها في السرد

[1]– بالأصل قدمت في ندوة فكرية مع مفكرين عرب في معرض كتاب الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2020، ضمن البرنامج الثقافي الموافق لأيام المعرض.

الحكائي، تمامًا كما فعل هتافو ميادين المظاهرات والموسيقيين حين أحيوا الأغنية الشعبية الكائنة في أعماق ضمائر الناس في قراهم وبلداتهم ومدنهم، وكما فعل الفنانون التشكيليون بإحياء الرسوم والزخارف الشعبية حين أعادوا الاعتبار لها ورسموها لوحات (جرافيك) على جدران الأبنية المطلة على ساحات التظاهر.

ومنذ الحضارة اليونانية القديمة، حدّدوا ثلاثة أجيال لدى البشر في القرن الواحد، واستمرّ مفهوم الجيل حتّى القرن التاسع عشر، ولم يكن الصراع بين الأجيال خارج حركة التاريخ، بل إنّ تتابع الأجيال يبتدع الجديد ويبتعث التراث، ومن ثمّ فمفهوم الجيل الأدبي يتضمن مرجعيات تكونه وآليات تبلوره، وتحديد الملامح التي تميّزه من دون اعتباطية؛ إذ لابد من فهم الأيديولوجيا الحاكمة على تشكّل فاعليات الجيل الأدبيّ، وما ورثه من السابقين وما دخل مستجدًا من الآخرين، وما أضافه الجيل في سيرورته الكميّة، وما آل إليه في صيرورته المتحوّلة ضمن سياقاتها اللغوية والأدبية والثقافية داخل المجتمع.

ولعلّ إدراك مفهوم صراع الأجيال يؤدّي بنا إلى تحديد معالم الجيل الأدبي؛ إذ بين مخاوف الكبار على معتقداتهم وقيمهم من تجديد الشباب وطموحاتهم، تتبني أسس الصراع المحدّدة لطبيعة سيرورة نتاج الجيل الجديد، ومن المعلوم أنّ قواعد العلاقات بين الكبار والصغار استمرت منتصرة إلى القديم حتى بدايات القرن العشرين، ولعل نتائج الثورة الصناعية ومآلاتها في الحقول العلميّة، أسّس لوعي جديد في مجالات الحياة كافة، فمن نقد ماركس للاقتصاد

الرأسمالي ونظرية تطور الأنواع ونظرية آينشتين في النسبية واكتشاف آليات اللغة وقوانين الرواية الحديثة، وثورات علم الاجتماع، والفلسفة التي نعى نيتشه العقل الديني المسيحي عن طريقها، وأكّد فرويد على ضرورة قتل الأب داخل النفس البشرية... إلخ، نتائج الثورة الصناعية التي أدت إلى هذا التسارع في تكوّن الأجيال المختلفة عما سبقها، ومنها الأجيال الأدبية المتتابعة التي أفضت إلى انتصار قواعد صراع الأجيال للجيل الجديد، مما زاد من عدد الاتجاهات والتيارات والمذاهب والمدارس والمناهج المتغايرة وفق سيرورات تاريخية متبدلة؛ مكوّنة صيرورات متجددة بسرعة قياسية غير مسبوقة في تاريخ البشر.

ولكل جيل قيمه وثقافته وجمالياته التي تعكس واقع الحياة الاجتماعية، ويتجلى ذلك في السلوك وفي الفكر، لاسيّما في النتاج الإبداعي، ولعل الثقافة الرسمية المكرسة بقوة القانون والممارسة المستمدة من سلطة السياسة أنتجت الأدب الرسمي المعبر عن الحاكم بقوة القانون، ومنه مناهج التدريس في المدارس والجامعات والأدب الراقي، وهناك الثقافة المهمشة التي أنتجت أدبًا استهلاكيًّا موازيًا، يطلق عليه الأدب الهامشي الذي ارتبط بحركات المقاومة المتنوعة في أساليب معارضتها، وفي طبيعة الكيان الذي تولد ضمنه، ثقافيًّا أو سياسيًّا أو إبداعيًّا، ولعلّ النظم الديمقراطية التي بدأت بالتكون إبان الثورة الصناعية لدى الغرب جعلت الأدب الرسمي يفسح المجال للأدب الهامشي المرتبط بالحياة المعيشة للإنسان واستخدامه للغة الشارع اليومية، وقد خطا

الغرب خطوات واسعة على درب الاعتراف بالأدب الشعبيّ، إلّا أن أنشطة النقد العربية لم تستطع إلى الآن أن تدرجه في مناهجها النقدية والتربوية .

ومن الممكن أن يكون السبب الرئيس أنّ الأدب الهامشي معارض القيم الجمالية التي ترسخها سلطة السياسة عن طريق مؤسساتها الثقافية، ومعارض المضمون الذي تفرضه السلطة وفق الأيديولوجيا التي تحكمها، وإذا كانت الدراسات النقدية أهملت الأدب الشعبي والتاريخ الأدبي، إلّا أنّه تمكّن أخيرًا من إثبات حضوره في الوعي الجمعي وفي الأعمال الإبداعية، ومنها العربية نسبيًّا، لأنهّ يحمل طابعًا جماعيًّا في المجتمعات، كما أنّ اتجاهات الما بعديات التي يسهل الوصول إليها أعادت الاعتبار إليه، لما يحتويه من ثراء معرفي وجماليّ في دائرة تداولاته المجتمعية، ولجرأة أطروحاته، ولتحرره من تسلط سلطة السياسة، ومن ثمَّ قدرته على مواجهة السلطات القهرية ومعارضتها.

تنوّعت الموضوعات التي عالجتها الرواية السورية عبر تاريخها، طرحت قضايا قومية واجتماعية وحضارية وسياسية ووطنية وتاريخية ووجودية ونفسية...، كما في بقية الأقطار العربية، وإذا اهتمّ الروائيون السوريون – غالبًا – بأبنية الرواية المكانية محليًّا، لما للمكان من أهمية، وقد ذكر مصطفى الضبع في هذا الصدد: "المكان يخلق المعنى، والروائي يمكنه أن يعبّر عن رؤية الأبطال من العالم وموقفهم منه، ومن الممكن تحويل عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن موقف الأبطال من اعالم" إلّا أنّ السرد فيها والموضوعات التي حُمّلت في متنها تجاوزت المحلية تّجاه قضايا الأمة العربية أو الهموم

الإنسانية، ولعلّ موضوعات التحرر من الاستعمار والحريات الاجتماعية، لاسيّما للمرأة، والسياسية والرؤى الاشتراكية ومشكلات استبداد السلطات السياسية والفقر والفساد من تيمات الرواية السورية، ولكنّ طرق معالجتها والتقنيات الفنية المستخدمة اختلفت بين ثلاثة أجيال، القديم وهو: ما كانت ولادة أبنائه الطبيعية ومجيئه للحياة قبل أواسط سبعينيات القرن المنصرم، وسندعوه جيل ما قبل الألفية، والمتوسط :الذين ولدوا منذ أواسط السبعينيات وحتى النصف الثاني من التسعينيات، ولعله الجيل الذي كان وقود ثورة الربيع العربيّ، وندعوه جيل الألفية، والجيل الجديد، وهو جيل ما بعد الألفية الذي نشأ وترعرع في أكناف الثورة، واكتسب طاقة الرفض لكل ما يعيق درب تقدمه، ولكل جيل من الأجيال السابقة سمات تختلف عن بعضها البعض، أما الرواية السورية فهي عبّرت عن هذا التقسيم الجيلي بوضوح، ولعلّ تفاعل الروائيين السوريين مع ثورة الربيع العربي في سوريا، وتزايد أعداد الروايات المنتجة، وطرق موضوع الثورة وتغول قوى الثورة المضادة هو في صلب الرواية السورية، ليس مضمونًا فحسب، بل على المستوى الفني والجمالي أيضًا.

د. أدهم مسعود القاق، كاتب سوري